المحاضرة الحادية عشر

الاتجاه الليبرالي

رفاعة الطهطاوي

ولد عام ١٨٠١م في مدينة "طهطا" بصعيد مصر، وينتمي لأسرة عريقة يتصل نسبها بآل البيت من جهة الأب وبالأنصار من جهة الأم.

- التحول الاقتصادي: كانت عائلته ميسورة الحال ولها امتيازات مالية (نظام الالتزام)، ولكن بعد إلغاء محمد علي لهذا النظام، تدهورت حالة الأسرة المادية، مما اضطر والده للتنقل بين المدن المصرية.

- التعليم المبكر: حفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة خلال ترحاله مع والده. وبعد وفاة والده، كفله أخواله الذين كانوا علماء في الفقه والنحو، فدرس عليهم متون اللغة والدين، مما أهله لاجتياز مناهج الأزهر لاحقاً.

- مرحلة الأزهر واللقاء المؤثر: التحق بالأزهر عام ١٨١٧م ودرس فيه لمدة ٦ سنوات.

- الشيخ حسن العطار: هو الأستاذ الأهم في حياة الطهطاوي. كان العطار عالماً مجدداً مهتماً بالجغرافيا والتاريخ والكتب الغربية، وهو من لفت انتباه الطهطاوي إلى العلوم غير التقليدية وأوصى به ليكون إماماً للبعثة المتجهة إلى باريس.

- الرحلة إلى باريس: نقطة التحول

- سافر عام ١٨٢٦م كإمام للبعثة العلمية، لكنه لم يكتفِ بدوره الديني، بل انكب على دراسة اللغة الفرنسية والعلوم الحديثة.

- ثقافة واسعة: قرأ لرواد التنوير الفرنسي مثل (فولتير، روسو، ومونتسكيو)، واطلع على الفلسفة اليونانية والجغرافيا والتاريخ.

- كتاب "تخليص الإبريز": ألفه لوصف مشاهداته في باريس، وقارن فيه بين المؤسسات الفرنسية والواقع المصري، داعياً للاستفادة من الجوانب الإيجابية في المجتمع الغربي دون المساس بالأصول الإسلامية.

- الإنجازات العملية بعد العودة.

- مدرسة الألسن: هو صاحب فكرة إنشائها (١٨٣٥م) وتولى نظارتها. كانت تهدف لتخريج مترجمين في كافة الفنون والعلوم، واعتبرها نواة لنشر المعرفة الحديثة.

- الصحافة: تولى رئاسة تحرير "الوقائع المصرية" عام ١٨٤٢م، وجعل اللغة العربية هي الأساس فيها بدلاً من التركية، كما أشرف على "المجلة العسكرية".

- قلم الترجمة: أسس مكتباً متخصصاً للترجمة (قلم الترجمة) لتعريب أمهات الكتب الغربية في الإدارة والتاريخ والقانون.

- محنة النفي والإبداع في السودان

- بعد وفاة محمد علي وتولي عباس الأول، تم إبعاد الطهطاوي إلى السودان (تحت مسمى إنشاء مدرسة هناك).

- رواية تليماك: استغل فترة وجوده في الخرطوم لترجمة رواية "مغامرات تليماك" لـ (فنلون)، وهي رواية تتضمن نصائح للحكام حول العدل والحد من الحكم المطلق، واعتبرت أول رواية مترجمة في الأدب العربي الحديث.

- العصر الذهبي الثاني والوفاة

- عاد في عهد سعيد باشا ثم نال حظوة كبيرة في عهد الخديوي إسماعيل، حيث شارك في وضع خطط التعليم الحديث.

- مجلة روضة المدارس: ترأس تحريرها عام ١٨٧٠م، وكانت منبراً فكرياً وثقافياً هاماً.

- توفي في مايو ١٨٧٣م مخلفاً إرثاً ضخماً من الكتب والمترجمات.

- رؤيته الحضارية

- كان الطهطاوي مبهوراً بالاختراعات الحديثة (مثل السكك الحديدية وقناة السويس) واعتبرها وسيلة للتقارب بين الشعوب.

- آمن بأن التطور المادي والتكنولوجي يعزز السلام والتعايش الإنساني.

أهم مؤلفات الطهطاوي:

- تخليص الإبريز في تلخيص باريز: وهو أهم كتبه، سجل فيه رحلته إلى فرنسا عام ١٨٢٦. المثير هنا أنه لم يكتفِ بالوصف، بل ترجم فيه الدستور الفرنسي لعام ١٨١٤ ليعرف العرب على مبادئ الحقوق والواجبات.

- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية: ركز فيه على مفهوم "التمدن" والنهوض بالمجتمع المصري.

- المرشد الأمين في تربية البنات والبنين: كتاب تربوي يؤكد فيه على أهمية التعليم للجنسين ودوره في بناء الوطن.

٢. الطهطاوي والفكر الليبرالي

- المُبشر الأول بالليبرالية: يُعتبر الطهطاوي أول من حاول غرس مفاهيم الديمقراطية والحكم الفردي الحر في "الشرق" الذي كان معتاداً على الحكم المطلق.

- الموازنة الصعبة: عاش الطهطاوي في عهد محمد علي باشا (حاكم قوي وصاحب سلطة مطلقة). لذلك، كان الطهطاوي يضطر أحياناً إلى تجميل أفكاره الليبرالية أو تقديم تنازلات لفظية ليرضي الحكام، حتى لا يصطدم مع نظام الحكم القائم.

- مفهوم السياسة والدعوة لتعليمها.

هنا يضع الطهطاوي تعريفات علمية للسياسة، ويطالب بتعميم المعرفة السياسية:

- تعريف السياسة: هي فن إدارة الدولة وفق أصول وأحكام، وسماها "فن السياسة الملكية" أو "علم تدبير المملكة".

- السياسة "الرجعية" (المرفوضة): انتقد الطهطاوي السياسة التي تقوم على الخداع والحيلة، واعتبرها لا تليق إلا بالحكام الجائرين.

- نشر الوعي السياسي: هاجم الطهطاوي الفكرة القديمة التي تقول إن السياسة يجب أن تظل سراً بين الحكام والوزراء فقط. بدلاً من ذلك، دعا إلى تعليم مبادئ السياسة لكل أبناء الشعب.

- التعليم والمنفعة العامة: يرى أن معرفة الناس بالقوانين والحقوق (المصالح العمومية) هي أساس قوة الدولة وتطورها.

مفهوم السياسة وأقسامها عند الطهطاوي

يرى الطهطاوي أن السياسة ضرورة قصوى لحياة الشعوب، وبدونها لا تقوم للدول قائمة. وقد قسّم السياسة إلى خمسة أنواع رئيسية:

- السياسة النبوية: وهي التي يختص بها الله أنبياءه لهداية البشر.

- السياسة الملوكية: وتتعلق بحفظ الشريعة، وإحياء السُنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وهي السياسة العليا للدولة).

- السياسة العامة: هي رئاسة الأمراء على البلاد والجيوش، وترتيب أحوالهم وإتقان التدبير.

- السياسة الخاصة: سماها الطهطاوي أيضاً "السياسة المنزلية"، وتتعلق بإدارة الفرد لشؤون بيته وحقوق إخوانه.

- السياسة الذاتية: وتسمى "السياسة البدنية"، وهي قدرة الإنسان على التحكم في أفعاله وأقواله وأخلاقه بزمام عقله.

نظرية الفصل بين السلطات

آمن الطهطاوي بضرورة التمييز بين السلطات الثلاث، وهو مفهوم حديث استقاه من الفكر السياسي الغربي:

١. السلطة التشريعية: (قوة تقنين القوانين).

٢. السلطة القضائية: (قوة القضاء وفصل الحكم).

٣.السلطة التنفيذية: (قوة تنفيذ الأحكام).

كما قسّم القوى المؤثرة في المجتمع إلى:

- القوة الحاكمة (الحكومة): وهي التي تدير المصالح وتدفع المفاسد، ويرى أنها يجب أن تكون مقيدة بالقانون والدستور.

- القوة المحكومة (الشعب): وهم الرعية الذين يبحثون عن منافعهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

إصلاح القضاء وتجديد الفكر التشريعي

بذل الطهطاوي جهوداً كبيرة لتطوير القضاء المصري:

- المزاوجة بين الشريعة والقانون: حاول الربط بين أصول الفقه الإسلامي والقوانين الغربية (مثل القانون الفرنسي)، مؤكداً أن الاستنباطات العقلية في القوانين الغربية لا تتعارض بالضرورة مع جوهر الشريعة إذا كانت تهدف للعدل والإحسان.

- الترجمة: قام بترجمة كتب قانونية هامة مثل "روح الشرائع" لمونتسكيو، وساهم في إنشاء قسم لدراسة الفقه والقوانين الأجنبية في مدرسة الألسن.

- المحاسبة والرقابة على الحاكم

"المحاسبة المعنوية" للحاكم، حيث يرى الطهطاوي أن الحاكم مسؤول أمام الله، ولكن هناك قوى أخرى تضبط سلوكه في المجتمع:

١.التذكير والوعظ: تنبيه الحاكم إلى أخطائه.

٢.الرأي العام: يرى الطهطاوي أن وجود رأي عام مستنير ومتحرك يعمل كـ "سلطان قاهر" يجعل الملوك يستحيون من اللوم العمومي.

٣.التاريخ: يُعتبر التاريخ قوة محاسبة معنوية، لأن التاريخ يسجل وقائع الملوك ويذكر محاسنهم ومساوئهم للأجيال القادمة ليعتبروا بها.

صفات "الحاكم الأعلى"

يضع الطهطاوي شروطاً أخلاقية وسياسية للحاكم الناجح، منها:

- البصيرة: أن يتأمل في عواقب الأمور قبل اتخاذ القرار.

- الرقابة الذاتية: أن يستشعر دائماً وجود الله في كل حركاته وسكناته.

- الولاية لا الملك: الله هو الذي استخلفه لرعاية الرعية، فهو "راعٍ" وليس "مالكاً" لها.

- توفير احتياجات الرعية: مسؤوليته توفير الغذاء المادي والمعنوي لشعبه، لا استنزاف مقدراتهم.

- تحقيق الحرية: يرى أن من واجب الحاكم إرشاد الرعية لسبل الرشاد ومساعدتهم في الوصول إلى "كمال الحرية".

- أنواع الحريات عند الطهطاوي

يعرّف الطهطاوي الحرية بأنها "العمل المباح دون مانع غير مباح"، ويقسمها إلى خمسة أصناف:

١.الحرية الطبيعية: حقوق الإنسان الفطرية (كالأكل والشرب والمشي) ما لم يضر غيره.

٢.الحرية السلوكية: حسن السلوك ومكارم الأخلاق التي يرتضيها العقل والمجتمع.

٣.الحرية الدينية: حرية العقيدة والرأي والمذهب، بشرط عدم الخروج عن أصول الدين.

٤.الحرية المدنية: الحقوق المتبادلة بين أفراد المجتمع لضمان أداء كل فرد واجبه تجاه الآخر.

٥.الحرية السياسية (الدولية): حق الدولة في السيادة وتأمين مواطنيها، وحرية التصرف في الأملاك والأموال وفق القانون والشرع (ويشبهها بالليبرالية الاقتصادية).

- مفهوم المساواة والعدالة

- يرى الطهطاوي أن وظيفة الحكومة هي المحافظة على أصناف الحرية الخمسة.

- المساواة عنده هي "المساواة القانونية" (التسوية بين المواطنين أمام القانون وفي تنفيذ الأحكام).

- يلاحظ النص أن الطهطاوي لم يتبنَّ "المساواة الاجتماعية أو الاقتصادية" المطلقة، بل ركز على المساواة السياسية والحقوقية.

العلاقة بين الحاكم والشعب

- طاعة ولي الأمر: يؤكد الطهطاوي على وجوب طاعة الحاكم لضمان استقرار الدولة ومنع الفتن والاضطرابات الداخلية.

- موقفه من الخروج على السلطة: يميل الطهطاوي إلى الصبر والامتناع عن اللجوء للعنف للتغيير السياسي، مفضلاً الإصلاح من داخل النظام وليس من خارجه، تجنباً للفوضى.

- معيار الشرف الاجتماعي: يرفض الطهطاوي المعايير الجاهلية والقديمة للشرف (مثل كثرة المال أو النسب الموروث)، ويرى أن الشرف الحقيقي يُبنى على "المواهب الحميدة والفضائل المفيدة" المستمدة من الشريعة الإسلامية.

- الطبقة الوسطى والأخلاق

- يعتبر الطهطاوي أن الفقراء غالباً ما يكونون أقرب للفضائل من الأغنياء المترفين.

- يؤكد أن "الطبقة الوسطى" هي الأفضل حالاً لأنها تقع في الوسط بين الترف الزائد وبين الانحلال الناتج عن الحاجة، وهي الموطن الحقيقي للفضائل الأخلاقية.